

بدائع الزهور في وقائع الدهور لابن اياس

بمستم

الدكتور محمد مصطفى زيادة

رئيس قسم التاريخ بكلية الآداب بجامعة القاهرة سابقاً

الانهار ، لم يلبثوا أن زالوا زوالهم المعروف ، في أعقاب
وقعة دابق شمالى حلب ، أوائل القرن السادس عشر
الميلادى .

وأطل محمد أحمد بن اياس المصرى الجركسى
الأصل على تلك الحوادث الراكضة من نافذة الطبقة
المملوكية الأميرية التى انحدر منها ، وكأن بيده اليمنى
قلم رفيع مطواع طويل البال ، وبيده اليسرى كتابه
بدائع الزهور ، يسجل فيه أركان التاريخ المصرى منذ
الخليقة على حد قوله ، ويتدرج فى الكتابة من اختصار
إلى تطويل وتفصيل يفيض بما رأى أو سمع أو خبر
بنفسه من حوادث عصره ، أو بعبارة أدق عصر سيطرة
السادة العثمانيين وحكومتهم الأولى فى مصر . ولذا جاء
هذا الكتاب ببلغ الدلالة على عنوانه ، من حيث المساحة
الزمنية والمعنى والمرمى والمحتوى والختام .

غير أن الجنود العائلية الجركسية التى انحدر منها
محمد أحمد بن اياس ترجع إلى ما قبل سيطرة العثمانيين
وأيامها فى مصر بمائة وخمسين سنة على الأقل ، وهو
ما لا تستطيع عائلة مملوكية أن تدعيه لنفسها إلا فى القليل
النادر ، نظراً لاستناد الجهاز المملوكى كله إلى طبقة
عسكرية إقطاعية أجنبية متجددة ، ينتهى أفرادها بانتهاء

عاش مؤلف كتاب بدائع الزهور فى وقائع
الدهور - وهو المؤرخ المصرى محمد أحمد بن اياس -
خلال عصر شهدت أواخره انقلاب الحال فى مصر من
سلطنة مملوكية متعالية ، ذات سلطان وبلاط وعاصمة
هى القاهرة ، إلى ولاية عثمانية مختفضة ، ذات وال
عثمانى يحى إليها ويروح منها أو عنها حسب مشيئة مصدرها
السلطان ابن عثمان ، على قول المؤرخين المصريين فى
ذلك العصر . وهذا الوضع الزمنى وحده يجعل حياة
ابن اياس تصويراً حياً للمجتمع المملوكى المصرى قبيل
غروبه التاريخى ، كما يجعل الجزء المعاصر من كتاب
بدائع الزهور مادة فريدة فاصلة واصلة بين المرحلتين
المملوكية والعثمانية فى تاريخ مصر الطويل .

على أن انقلاب الحال فى مصر زمن ابن اياس لم يكن
وليد عشية وضحاها ، أو نتيجة انتصار العثمانيين على
المماليك فى وقعة حربية حاسمة فحسب ، بل ثمرة سنوات
وسنوات غابرة من الحكم المملوكى الذى جعل من مصر
والشام معها أداة لخدمة مصالح السلاطين المماليك وأمرائهم
وتابعهم ، داخلياً وخارجياً ، حتى إذا فقد المماليك
روح عصبيتهم وطاقاتهم على البقاء والاستمرار والمقاومة ،
وأخذت فئاتهم تتناحر متسابقة - وهى لا تدري - نحو

حياتهم ، أو حياة أبنائهم على أطول تقدير ، بخلاف ما اتفق لأسلاف محمد أحمد بن اياس .

ومن أوائل تلك الجذور العائلية التي نبت منها محمد ابن اياس أن جده لأمه ، واسمه ازدمر العمرى الناصرى أبو ذقن ، جاء إلى مصر رقيقاً مملوكاً بين مشتریات السلطان الناصر محمد بن قلاوون ، وانتسب إليه كالمعتاد ، ولم يلبث هذا المملوك أن تدرج في مراتب الإمرة الصغرى والكبرى حتى صار من كبار الأمراء زمن السلطانين حسن وشعبان ، وتولى في مدة حكمهما وظيفة أمير سلاح ، وتقلب في نيابات صفد وطراباس وحلب ، واختاره السلطان شعبان أخيراً لنيابة دمشق ، غير أن الموت عاجله وهو في الطريق إليها سنة ١٣٦٦ م. ولدينا معلومات متشابهة ولكنها غير كثيرة بصدد جد محمد بن اياس لأبيه ، واسمه اياس الفخرى ، وهو من مماليك السلطان برقوق ومشترياته الجراكسة الأجلاب الجدد . وبلغ هذا المملوك كذلك مرتبة الإمرة سريعاً ، وتولى وظيفة الدوادر الثمانى زمن السلطان فرج ابن برقوق ، ولعل استمراره في هذه الوظيفة الصغيرة ، ثم عزله عنها وبقائه بعد ذلك خالياً من أى عمل رسمى حتى وفاته ، هو الذى جعله بعيداً عن أقلام المعاصرين من المؤرخين . ولو أراد محمد بن اياس أن يترجم لهذين الجدين لوجد مادة كافية ، ولكنه لم يحاول شيئاً من ذلك في أى كتاب من كتبه ، بل يبدو كأنما تعمد الإقلال من الإشارة إليهما ، لا لشيء سوى أنه كان مقتصداً في الكلام عن أهله على وجه التعميم .

وينطبق ذلك كله على ما أورده محمد أحمد بن اياس عن والده أحمد الذى كان من فرقة أولاد الناس في المجتمع المملوكى ، أى أنه كان من أفراد الفرقة المملوكية التي شملت أبناء الأمراء من المماليك المندرجين بالوفاة ، وهي في الواقع فرقة على حافة المجتمع المملوكى ، وأخبار أفرادها لا تصل إلى كتب الحوليات التاريخية أو كتب التراجم والطبقات ، لصلآتها في الموازين المملوكية ،

إذ جرت العادة أن يعطى للواحد منهم إقطاع بإمرة خمسة رعاية لسلفه ، بشرط أن يندمج في الرديف السلطانى زمن الحرب ، ويكون صالحاً للخدمة في إحدى الوظائف المدنية الصغرى زمن السلم . وذكر محمد بن اياس عن أبيه أحمد هذا أنه كان من مشاهير أبناء الناس ، كثير العشرة للأمراء وأرباب الدولة ، وأنه عاش نحواً من أربع وثمانين سنة ، وأنه أنجب في حياته الطويلة خمسة وعشرين ولداً ، ما بين إناث وذكور ، وذلك دون أن يشير إلى ترتيبه هو في هذه الذرية العامرة ، ما عدا أنه ولد سنة ١٤٤٨ م ، وأنه لم يبق من أخواته وإخوته بعد وفاة والده سوى بنت واحدة وصبيين اثنين وهما محمد بن اياس نفسه وأخوه يوسف . ونشأ محمد بن اياس كأبيه من قبل في محيط فرقة أولاد الناس ، على حافة المجتمع المملوكى ، ولذا لم يصل إلى الباحثين من أخباره في هذه المرحلة أو غيرها من مراحل حياته سوى ما سجله هو من إشارات ترجمية عابرة في مؤلفاته . والواقع أن أحداً من معاصريه أو لاحقيه لم يترجم له بكثير أو قليل ، وأن مبلغ ما يعتمد عليه الباحث لإنشاء ترجمة لهذا المؤرخ الكبير لا يعدو نتفاً مبعثرة في كتبه التي ألفها ، وعبثاً يرود الباحث غير ذلك من الكتب المعاصرة والمتأخرة ، وهي مؤلفات الشيخين جلال الدين عبد الرحمن السيوطى وعبد الباسط ابن خليل بن شاهين الحنفى ، وهما من أساتذة ابن اياس ، ثم مؤلفات السخاوى والغزى والأعظمى واليمنى والحجى والمرادى ، وهم أصحاب كتب التراجم والسير للقرون التاسع والعاشر والحادى عشر والثانى عشر الهجرى .

على أن فقدان هذه الترجمة لابن اياس لا يعجز الباحث أو يعيبه عن محاولة الكتابة فيه ، بل هو خسارة مشوبة بربح سلبى ، إذ يغدو الاعتماد في الكتابة مرتكزاً إلى ما هنالك من إشارات لابن اياس عن نفسه ورجال عصره فيما ألف هو من كتب ، فيستشف الباحث منها موقفه من الحوادث ، ويدرك منها بعض دخائل شخصيته

وملامح أخلاقه . ومن تلك الإشارات أن ابن اياس عاش طول حياته كأبيه أحمد في فرقة أولاد الناس ، وتمتع منذ شبابه بإقطاع مشابه لإقطاع أبيه ، فساعدته ذلك الإقطاع على ممارسة علوم عصره ولا سيما الأدب والشعر والتاريخ . وعاش عيشة راضية جانحة إلى شيء من التصوف ، دون أن يتطلع أو يتدرب على وظيفة مستقبلية معينة ، من بين الوظائف الإدارية الصغرى المخصصة لطبقته . وحج ابن اياس إلى مكة والمدينة وهو في الثلاثين من عمره ، وعاد من الحج إلى حياته الراضية على حافة المجتمع المملوكي ، على عكس أخيه الذي مال إلى فنون الحرب ، وتعلم فن الزردكاشية ، أى المدفعية ، وصار يعرف باسم يوسف الزردكاش ، وعلى عكس صهره قرقماس المصارع الذي كان أميراً من أمراء العشرات في الجيش المملوكي ، ومعلماً خبيراً بحرفة المصارعة . والراجح الواضح من مؤلفات محمد أحمد ابن اياس ، وهى المصدر الوحيد لكل ما هو معروف عنه ، أنه عاش تلك السنوات التكوينية من حياته في أرض الحمول ، على قول المنصوفة ، أى أرض الهدوء والقناعة وعدم الحاجة إلى الجرى وراء الصنيت والوظائف وأشباهها .

ووافقت تلك السنوات التكوينية من حياة محمد أحمد بن اياس مرحلة معروفة في التاريخ المصرى بكثرة الفتن وقلة السلاطين القادرين على مواجهة تلك الفتن وإخمادها ، على أن أهم ما حدث في تلك السنوات لم ينبع من مصر بل جاء إليها من بلاد ابن عثمان حين افتتح السلطان محمد الفاتح العثماني مدينة القسطنطينية ، وازدانت القاهرة بالزينات والأفراح ثلاثة أيام ، وكان محمد بن اياس وقت ذاك في الخامسة من العمر ، والسلطان المملوكي اينال في الرابعة والسبعين من عمره ، وهو شيخ ضعيف شاب قرناه منذ حوالى ربع قرن من الزمان ، لا يعرف شيئاً من القراءة أو الكتابة ، وليس له صفة بارزة سوى عجزه التام عن كبح ثورات

مماليكه الجدد وفضائلهم في شوارع القاهرة ، وهم الأجلاب أو الجلبان في المصطلح المعاصر . وأعقبت أيام هذا السلطان الهين اللين - على قول ابن اياس نفسه - سلطنة خشقدم الذى طفحت أيامه كذلك بثورات جلبانه وغيرهم من طوائف المماليك الشاردة عن الطاعة السلطانية . وظل الحال على ذلك المنوال المزعج حتى جاء إلى السلطنة قايتباى المحمودى سنة ١٤٦٨ م ، وهو رجل له خبرة واسعة بشئون الحكم ، وكان محمد ابن اياس وقتذاك في العشرين من عمره . وجعل قايتباى من مماليكه الجلبان أداة ، لا لإزعاج القاهريين في حياتهم اليومية ، بل لكسر شوكة الطوائف المملوكية الأخرى ، واستطاع بذلك أن يدير دفة الدولة المملوكية لإدارة ناجحة مدة ست وعشرين سنة ، أى حتى وفاته سنة ١٤٩٦ م ، وكان محمد ابن اياس وقتذاك في السادسة والأربعين من العمر .

وفي أواخر عصر السلطان قايتباى بات العداء العثماني سافراً ضد الدولة المملوكية ، بسبب انتصار الممالك على العثمانيين في أطراف آسيا الصغرى خمس مرات في خمس سنوات متتالية ، كما غدا الخطر البرتغالي على التجارة المملوكية الهندية واضحاً كل الوضوح ، بعد أن دار البرتغاليون حول رأس الرجاء الصالح ، ووصلوا إلى شواطئ الهند ، وأنشأوا لتجارهم محطات على الساحل الهندى - والخليج العربى الفارسى ، بل حاولوا دخول البحر الأحمر من ناحية عدن ، وذلك في عصر السلطان قانصوه الغورى . وهكذا اختتم القرن الخامس عشر الميلادى في مصر بما فيه من خير وشر ، وقابلية ظاهرة واضحة لأتمة نحو الجانب الثانى من هذين الجانبين .

تلك بعض معالم المحيط المملوكى المتلاطم الذى عاش فيه محمد بن اياس سنوات نضجه ، إذ أدرك الثانية والخمسين من عمره عند مطلع القرن السادس عشر الميلادى ، وشهد الحوادث العالمية المتقدمة من نافذته المملوكية المصرية . ولم يكن ابن اياس من أهل السيف

والإمرة فتهزه الانتصارات الملوكية العسكرية على
العثمانيين ، أو من أهل التجارة والمال فتزعجه حركات
البرتغاليين في المحيط الهندي بل يبدو واضحاً في ضوء
إنتاجه والترتيب الزمني لهذا الإنتاج أنه كان منصرفاً كل
الانصراف حوالى ذلك الوقت إلى رسم الخطوط
والمقاييس النسبية لمشروع كتابه بدائع الزهور ، وذلك
بعد قراءة واسعة في عدد كبير من المصادر العربية في
التاريخ المصرى من عصر صدر الإسلام إلى عصره ،
على حين كان عاكفاً على تسجيل حوادث عصره سنة
بعد سنة وشهراً بعد شهر على قوله ، لتكون تسجيلاته على
أهبة للتدوين في مواضعها حين الوصول إليها في الأجزاء
المعاصرة من كتابه .

وهنا يتحول كاتب هذه السطور مؤقتاً عن مقعده
من هذا المقال ، ليشارك مع القارئ في الاستماع إلى
شرح ابن اياس لأغراضه من تأليف هذا الكتاب ،
ونصه بعد البسملة والحمدلة والصلاة والسلام على
النبيين والمرسلين : « وبعد فهذا جزء من كتابنا المؤلف
في التاريخ المرسوم بدائع الزهور في وقائع الدهور ،
وقد أوردت فيه فوائد سنية ، وغرائب مستعذبة
مرضية ، تصلح لمسامرة الجليس ، وتكون للمنفرد
كالأنيس . وقد طالعت على هذا التاريخ كتباً شتى نحو
سبعة وثلاثين تاريخاً ، حتى استقام لى ما أريد وقد
توخيت فيه أخبار مصر ، وأوردت ذلك شيئاً فشيئاً على
الترتيب ، قاصداً فيه الاختصار ، فجاء بحمد الله ليس
بالطويل الممل ، ولا بالقصير المخل ، وذكرت فيه
ما وقع في القرآن العظيم من الآيات المكرمة في أخبار
مصر ، كناية أو تصريحاً ، وما ورد فيها من الأحاديث
الشريفة النبوية في ذكرها ، وما خصت به من الفضائل ،
وما فيها من الخاسن دون غيرها من البلاد ، وما اشتملت
عليه من عجائب وغرائب ووقائع وغير ذلك ، ومن
نزها من أولاد آدم ونوح عليهما السلام ، ومن دخلها من
الأنبياء عليهم السلام ، ومن ملكها من مبتدأ الزمان من

الجبابرة والعمالقة واليونان والفراعنة والقبط وغير ذلك ،
ومن وليها في صدر الإسلام من الصحابة والتابعين
رضوان الله عليهم أجمعين ، ومن وليها من طائفة
الأخشيدية والفاطميين العبيدية ، ومن وليها من بنى
أيوب وهم الأكراد ، ومن وليها من ملوك الترك
والجراكسة إلى وقتنا هذا ، وهو افتتاح عام لإحدى
وتسعةائة ، ومن كان بها من الحكماء والعلماء والفقهاء
والخديثين والقراء ، ومن كان بها من الصلحاء والزهاد ،
ومن كان بها من الشعراء وغير ذلك من أعيان الناس ،
وقد بينت ذلك في تراجمهم من مبتدأ خبرهم وذكر
أنسابهم ومدة حياتهم إلى حين وفاتهم ، حسبما يأتي ذلك
في مواضعه على التوالى من الشهور والأعوام . »

ويتضح من هذه العبارات التقديمية وغيرها من
الإشارات التي أودعها محمد أحمد بن اياس في مواضع
أخرى من بدائع الزهور في وقائع الدهور أنه أراد أن
يجعل من كتابه هذا تاريخاً لمصر منذ أقدم العصور إلى
عصره ، وأنه قرأ من أجل ذلك عدداً كبيراً من
المصادر الأصلية والفرعية في التاريخ المصرى منذ ابن
عبد الحكيم إلى ابن تغرى بردى ، بل لم يحجم عن قراءة
الموسوعات التاريخية الكبرى من المسعودي وابن عساكر
وابن الأثير والذهبي . والمعروف نقلاً عن الأجزاء
المقطوع بوجودها من المخطوطة الأصلية التي كتبها
ابن اياس بيده ، أنه بدأ في تأليف هذا الكتاب الكبير
حوالى سنة ١٤٩٣ م ٨٩٩ هـ ، وهو في سن الخامسة
والأربعين ، وأنه انتهى من الجزء الرابع منه في مطلع
سنة ١٤٩٥ م - ٩٠١ هـ ومن الجزء الخامس في أواخر
تلك السنة نفسها ، ومن الجزء الثامن في أواسط ١٥٠٧ م
- ٩١٣ هـ ، ومن الجزء التاسع في أوائل سنة ١٥٠٨ م -
٩١٤ هـ .

ثم حدث لابن اياس في منتصف تلك السنة ما عكر
عليه صفو حياته الهادئة ، وكان كفيلاً بتعطيل كتابه عن
الإكمال ، وحرمان تراث الإنسانية من الأجزاء التالية

من ذلك الكتاب ، وهى الأجزاء التى يكاد ينفرد بها ابن اياس فى التاريخ المصرى . وذلك أن أحوال السلطان قانصوه الغورى تأزمت بسبب ضيق سبل المال اللازم للصرف على ممالكه ، فعمد إلى إخراج أولاد الناس عن إقطاعاتهم ، كما قطع الرزق الأحماسية والأوقاف عن أهلها ، وأطلق للمالكة العنان للهجوم على أصحاب تلك الإقطاعات والأحماس والأوقاف فى بيوتهم ، ويأخذوا منهم مناشيرها وأوراقها ووثائقها غصباً وضرباً ، إذا احتاج الأمر إلى الغضب والضرب . ونال ابن اياس من تلك الكارثة ما نال غيره من أبناء فرقة ، فذهب عنه إقطاعه إلى أربعة من صغار الممالك بمكاتبات سلطانية ، مما يدل على أن إقطاعات أولاد الناس لم تكن صغيرة أو حقيرة ، برغم ضآلتها النسبية فى التوزيع الإقطاعى المملوكى ، بل استطاع محمد بن اياس بفضل حصيلة إقطاعه مثلاً أن يعيش عيشة راضية ، وأن يتوفر على الكتابة والتأليف ؛ وكان ضياع هذا الإقطاع منذراً بخسارة تاريخية كبرى . غير أن من حسن الحظ أن محمد بن اياس لم يبق مدة طويلة بعيداً عن إقطاعه ، إذ قدم للسلطان الغورى أوائل سنة ١٥١٠ م ، أى ٩١٥ هـ ، قصة يشكو فيها حاله وماله ، وقدمها إليه وهو فى طريقه إلى ميدان القلعة للعب الكرة بالصوالجة - (البولو) ، فاستجاب السلطان قانصوه الغورى إلى شكواه ، ورد عليه إقطاعه ، وربما كان ذلك كله بفضل أخيه يوسف الزردكاش الذى كان من المعروفين للسلطان الغورى ، بسبب مهارته الكبيرة فى فنون الزردكاشية .

وكيفما كان الأمر فالمعروف أن محمد أحمد بن اياس مضى بعد ذلك جاداً فى تأليف كتابه ، فوصل فيه إلى الجزء العاشر فى مستهل سنة ١٥١٦ م - ٩٢٢ هـ ، وإلى الجزء الحادى عشر آخر يوم من سنة ١٥٢٢ م - (٩٢٨ هـ) ؛ وكان ابن اياس وقت ذلك فى السادسة والسبعين ، وفى صحة جيدة متفائلة بطول البقاء ومناهزة

الثمانين من العمر كأبيه من قبله ، بدليل تدوينه فى آخر الجزء الحادى عشر أنه سوف يتلوه بالجزء الثانى عشر . غير أن ابن اياس مات فى السنة التالية ، وهو فى السابعة والتسعين ، وليس من المعروف هل أدركه الموت قبل أن يبدأ فى تحرير هذا الجزء الثانى عشر ، أم أنه افتتح هذا الجزء وكتب منه صفحات ضاعت على الباحثين ، ولم يعثر عليها أحد حتى العصر الحاضر .

ثم تناول النساخون هذا الكتاب ، فنقلوا منه نسخاً بعضها كاملة وافية ، وبعضها مختصرة ناقصة ، ومن إحدى النسخ الناقصة تم طبع هذا الكتاب فى مطبعة بولاق الأميرية فى أواخر القرن الماضى ، فجاءت هذه الطبعة بعيدة عن النسخة الأصلية ، خالية من أهم أجزائها . ثم أدركت جمعية المستشرقين الألمان فى استامبول هذا النقص ، فنشرت بألمانيا ثلاثة أجزاء من النسخة الكاملة كما نشرت الجمعية المصرية للدراسات التاريخية بالقاهرة جزءاً واحداً منها ، بتحقيق وتقديم الدكتور محمد مصطفى مدير المتحف الإسلامى بالقاهرة سابقاً ، وذلك بعد اشتراكه فى تحقيق الأجزاء الثلاثة المشار إليها . غير أن نيران الحرب العالمية الثانية أكلت الأجزاء التى نشرت الجمعية المستشرقين الألمان ، فاتجهت الجهود إلى إعادة طبع الكتاب كله من الأجزاء المقطوع بوجودها من المخطوطة الأصلية ، مع تكميل الأجزاء الناقصة من نسخة خطية كاملة منقولة من هذه المخطوطة الأصلية . وأسهمت فى أوائل ثمرات هذا المشروع العلمى الجليل كل من وزارة التربية والتعليم ، ووزارة الثقافة والإرشاد القومى والجمعية المصرية للدراسات التاريخية بالقاهرة ، كما أسهمت فيه دار بريل الهولندية للنشر فى ليدن ، والجمعية التاريخية الباكستانية فى كراشى ، واتحاد البحوث العلمية بمنطقة شمال الرين فى فستفاليا ، ودار النشر فرانز شتاينر فى فسادن ، والآمال معقودة على تنويع هذه الجهود بالنجاح التام ، وإخراج طبعة نهائية وافية من هذا الكتاب الطويل ، من أوله القديم إلى آخره المعاصر .

ذلك أن أهمية هذا الكتاب وأشباهه من المصادر التاريخية الكبرى لا تقتصر على الأجزاء المعاصرة ، بل تتعدى في كثير من الأحيان إلى الأجزاء غير المعاصرة التي نقل المؤلف مادتها نقلاً حرفياً أو تلخيصاً من كتب السالفين البعدين والقريبين ، ثم ضاع بعض هذه الكتب السالفة ، بحيث أصبح المنقول منها هو كل ما لدينا من مادتها الأصلية ، وسوف يدل نشر الأجزاء الأولى المرتبة من الطبعة الوافية من كتاب بدائع الزهور على احتواء تلك الأجزاء على متون كثيرة ضاعت أصولها .

على أن الأجزاء المعاصرة من كتاب بدائع الزهور هي موضع الأهمية ومنبعها الأول والأخير ، وتبتدئ هذه الأجزاء من حيث انتقل ابن اياس في كتابه نهائياً من مرحلة الاعتماد الكلي على كتب السالفين إلى مرحلة الاعتماد على المعاينة والتجربة والمشاهدة ، وتسجيل أخبارها المعاصرة بنفسه . وهذا الانتقال واضح من محتويات بدائع الزهور من سنة ١٤٦٨ م (٨٧٢ هـ) فصاعداً ، وهي السنة التي افتتح بها السلطان قايتباي عهده المديد ، وابتدأ عندها ابن اياس أوائل العشرينات من عمره الطويل . ومن سعيد المصادفة أن كانت هذه السنة — هي التي انتهى فيها ابن تغري بردي من كتابه النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، وبدا غدت حلقة السنوات التالية لتلك السنة من كتاب بدائع الزهور خاتمة مكملة لمجموعة الحلقات المعاصرة في التاريخ المصري المملوكي ، من ابن واصل إلى ابن اياس .

ولزم محمد ابن اياس جميع ما يلزم في صناعة التاريخ في عصره من طريقة الحوليات الشائعة وقتذاك ، والتي ورثها عن أسلافه المباشرين ، مع شيء من الفارق الجزئي الشكلي لا الجوهرى ، فدوّن عهود السلاطين سنة بعد سنة في الأجزاء غير المعاصرة ، ثم انتقل إلى التدوين شهراً بعد شهر في الأجزاء المعاصرة ، ثم يوماً بعد يوم في الأجزاء الأخيرة ، وبدا جند الأخبار تجديداً ، وشحنها شحناً ، حسبما اتفق من وقوعها ، فأورد أخبار

السلاطين والخلفاء والأمراء من سلطنة وولاية وعزل ووفاة ، وذكر أحوال الفئات المملوكية من ثورة أو ركود ، وكتب في النظم الإدارية والأحوال الاجتماعية والأعياد الدينية وغير الدينية ، ووصف المواكب والأسمطة السلطانية ، ومواسم لعب الكرة والصيد وسجل مناسيب النيل زمن الفيضان والتحريق ، وذكر الأرصاد الجوية من خسوف القمر وكسوف الشمس وهبوب الرياح وسقوط الأمطار ، وشرح أحوال العلماء والأدباء والشعراء والمؤرخين والأعيان والتجار ، وترجم للمتوفين منهم ترجمة طويلة أو قصيرة حسب المقام ، وذكر المنشئات والمباني السلطانية والأميرية من مساجد وعمائر ورباع وقباب ومدافن ، وتبع أخبار الأسعار اليومية وشئون المحاصيل والمسكوكات من الذهب والفضة والنحاس ، وذلك دون تفرقة بين ما هو مقدمة وما هو نتيجة ، ودون اعتبار لمقتضيات الترابط التاريخي بين حوادث أيام معينة وحوادث إخوتها من الأيام السابقة أو اللاحقة ، ما عدا وقفات اعتاد ابن اياس تطريزها بأشعار أو أزجال أو مواويل مناسبة من نظم أصدقائه من شعراء ذلك العصر ، أو من نظمته الشخصي وهو غير قليل .

والواقع أن منظومات ابن اياس بالذات توجب شيئاً من الالتفات ، فمنها ما هو أمدوحة أو مراثية لسلطان أو أمير ، ومنها ما هو تهنئة بشفاء من مرض ، أو نجاة من محنة ، ومنها ما هو نقد أو تعقيب على بعض الأعمال السلطانية أو الأميرية أو غيرها من أعمال كبار الموظفين في شئون الحكم والإدارة والقضاء . وهذه تدل في مجموعها الكلي على أن ابن اياس عاش ، لا على حافة المجتمع المملوكي كما تقدم ، بل في وسط البلاط السلطاني ، متصلاً ببعض رجاله البارزين ، كما كان أبوه من قبل ، وكما هو واضح من ثنايا كتابه بدائع الزهور في وقائع الدهور . فهل نستخلص من هذه القرائن الشعرية والشخصيات المتعلقة بها أن ابن اياس

أحب أن يكون معروفاً بقربه من البلاط السلطاني ورجال الحكم ، مع عزوفه أو بعده عن وظائف الدولة صغيرها وكبيرها ؟ أو أنه أراد أن يكون معروفاً بين أعلام المؤرخين المعاصرين - وكلهم من أرباب النظم والشعر ، فضلاً عن التأليف في التاريخ - بأنه لا يقل عن أحد منهم في هذا وذاك ، بل يزيد عليهم بشيء من التجديد في الكتابة التاريخية ، وأولئك هم أولاً شيخاه عبدالرحمن السيوطي وعبدالباسط بن خليل اللذان يستشهد كثيراً بأقوالهما ، ويذكرهما في كثير من الاحترام والتقدير وعرفان الجميل ، ثم ثانياً زملاؤه خليل بن شاهين الصفوي ، وعبدالرحمن السخاوي ، ويوسف ابن تغري بردي ، وابن الصيرفي ، وابن طولون . أو نقول بأن ابن اياس أراد أن يكون معدوداً بين الأدباء المشهورين في ذلك العصر ، وهم بدليل أسماؤهم خليط بعضه من أولاد الناس مثل ابن اياس نفسه ، وبعضه من أبناء العلماء المصريين ، ومنهم الناصري محمد بن قنصوه ، وابن الحجار ، والأشثوني ، وابن الطحان ، وابن مبارك شاه ، وابن النبيه ، وابن الشاب التايي ، والشهاب المنصوري وصفى الدين الحلبي ، وبدر الدين الزيتوني ، بدليل إيرادهم منظومات هؤلاء جنباً إلى جنب منظوماته في المباريات الشعرية وفي التعقيب على مادة تاريخية واحدة ؟

أو نرجح بأن ابن اياس تولى وظيفة مؤرخ الدولة في الحكومة المملوكية ، أو أنه أقام نفسه في شيء يقرب من ذلك أواخر زمن السلطان قانصوه الغوري ، أو أنه أراد لنفسه من هذا السلطان مركزاً مشاهراً لمركز محمود العيني مع السلطان برسباي ، بدليل مدائحه الكثيرة في السلطان الغوري بعد أن أعاد إليه اقطاعه مع العلم بأن ابن اياس لم يذكر شيئاً عن تلك الوظيفة المزعومة أو ما يشابهها ، تلميحاً أو تصريحاً في مؤلفاته ، وبأن وظيفة بهذا الاسم لم تعرف في مصطلح السلاطين المماليك ، ومع العلم كذلك بأن ابن اياس كتب ترجمة موضوعية للسلطان الغوري قرر فيها أن مساوئه كانت أكثر من محاسنه .

وسوف يطالع القارئ هذه الترجمة فيما يلي ، فيرى فيها قائمة طويلة لهذه المساوئ ، بالقياس إلى ما ذكره ابن اياس باختصار من محاسن هذا السلطان .

غير أنه مهما يكن من ترجيح أو ميل لهذا أو ذاك أو غيره مما يحتمل أن يكون وظيفة أو شبه وظيفة لابن اياس في المحيط المملوكي ، فالراجح من كتابه بدائع الزهور في وقائع الدهور ، ومن أشعاره المبعثرة في صفحات هذا الكتاب ، فضلاً عن تعليقاته الثرية الجاسرة ، ومناسباتها الخاصة والعامة ، أنه عاش فرداً متبعاً حوادث المجتمع المملوكي التي تقلب فيه ، وليس ذلك بصفته مؤرخاً مهتماً بتدوين الحوادث والأخبار ، بل لأنه كان رجلاً حياً حساساً بما يجري في دولة بدت عليها مخايل الزوال ، وربما كان أوضح دليل على ذلك قصيدته الطويلة بصدد ضريبة المشاهدة التي فرضها السلطان الغوري على الناس ثم ألغاها أواخر أيامه ومرثيته التي قالها في حوادث الفتح العثماني لمصر ، وهي كذلك مذكورة في كتابه بدائع الزهور .

ومن مؤلفات ابن اياس عدا ذلك كتاب عقود الجمان في وقائع الأزمان ، وهو كتاب صغير في تاريخ مصر ، وليست له أية علاقة بكتابه الكبير بدائع الزهور في وقائع الدهور ، أو بالنسخ المختصرة المتداولة منه . ويبدو أن ابن اياس كتب هذا الكتاب الصغير أيام شبابه الباكر ، بدليل ما اتسم به عنوان هذا الكتاب من ضخامة لا تتناسب مع حجمه ومحتواه . وشبه بذلك كتاب آخر لابن اياس في التاريخ ، وعنوانه نزهة الأعمى في العجائب والحكم ، وهو تأليف صغير كذلك في تاريخ العالم القديم وأحواله ، وبخاصة مصر وأحوالها وحدودها ومعادنها ونيلها وزراعتها ، ونزول العرب في ريفها واقطاعاتها . ويتبع هذه المؤلفات الصغيرة كتاب مرج الزهور في وقائع الدهور ، وهو تأليف عامي في قصص الأنبياء والرسل ، ولعله كذلك من أوائل مؤلفات ابن اياس ، بدليل ذكر محتوياته في الفصل السابع من الجزء

الأول من الطبعة البولاقية من كتاب بدائع الزهور .
ولابن اياس كذلك كتاب نشق الأزهار في عجائب
الأقطار، وهو كتاب في الفلك والهيئة وتركيب الكون،
وآثار مصر الفرعونية وملوكها الأقدمين . وفي مقدمته
لهذا الكتاب ذكر ابن اياس أنه قصد بتأليفه أن يجمع فيه
أغرب ما سمع وأعجب مارأى، ولا سيما عجائب مصر
وأعمالها ، وما صنع الحكماء فيها من الطلسمات المحكمة ،
وكان فراغه من هذا الكتاب سنة ١٥١٨ ميلادية أى
٩٢٢ هجرية ، وكثيراً ما استمد منه علماء أوروبا في القرن
التاسع عشر ، لشرح بعض نواح من تاريخ مصر القديم
في زمنه . وكان فراغ ابن اياس من تأليف هذا الكتاب
سنة ١٥١٨ ميلادية (٩٢٢ هـ) ، أى أنه كان مشغولاً
بكتابته مع الجزء العاشر من بدائع الزهور ، وابن اياس
وقتك في السبعين من العمر .

غير أن شهرة ابن اياس لا تستمد كثيراً من هذه
الكتب الصغرى، بل تستند إلى كتابه الكبير، وهو بدائع
الزهور في وقائع الدهور . والواقع أن هذا الكتاب كفيل
وحده بأن يجعل محمد ابن اياس عميداً ثالثاً بين ثلاثة
العمداء من المؤرخين في مصر في القرن الخامس عشر
الميلادى، وهم بحسب أقدميتهم الزمنية وجدارتهم التاريخية
معاً أحمد المقرئى، ويوسف ابن تغرى بردى، ومحمد
ابن اياس نفسه ، كما أن هذا الكتاب الكبير بدوره ثالث
ثلاثة من المصادر المملوكية الأصلية في ذلك العصر، بل
يمتاز هذا الكتاب بأنه المصدر الوحيد أو يكاد ، لحوادث
عصر السلطان قانصوه الغورى وحوادث الاستيلاء
العثمانى على مصر، وما بعد ذلك الاستيلاء المؤسف، لمدة
خمس سنين . وكل ذلك في أسلوب واضح مهذب ،
تسرى فيه نغمة مصرية هادئة دافئة . وهذا الأسلوب هو
الذى جعل المستشرق مارجليوث يميز ابن اياس عن
جمهرة المؤرخين في مصر وغيرها من البلاد العربية
بقوله : إن أسلوبه في الكتابة والتأليف، ونمطه في التفكير
والنقد ، ينم كل منهما عن فردية واستقلال في رأى قل

أن يدانيه فيهما معظم المؤرخين .

ويبدو واضحاً من محتويات بدائع الزهور أن ابن
اياس كان على جانب من القدرة في التفكير والنقد،
ولم يقنع بإيراد الحوادث والوقائع على وتيرة أغلب
السالفين من المؤرخين، بل وقف بين الحادثة والأخرى
يشرح ويفلسف، مع شيء من القسوة في الحكم والجرأة
في التقدير، وربما شجعه على ذلك اتصاله ببعض أعيان
البلاط السلطاني في عهود مختلفة ، وهذا فضلاً عن صلته
بأخيه يوسف الزردكاش الذى أمده بما جرى بالقلعة
ودوائر الجيش المملوكى من أخبار ، ولا سيما أخبار
المدفعية التى عنى ابن اياس بتدوينها بالإشارة إلى إهمالها
الغريب زمن السلطان قانصوه الغورى .

وأودع ابن اياس صفاته ومؤهلاته ونظراته وتأملاته
في محيطه المملوكى كلها في كتابه « بدائع الزهور في
وقائع الدهور » ، ولا سيما في الصفحات الخاصة بحوادث
الاستيلاء العثمانى على مصر والشام ، وهى الصفحات التى
يكاد ينفرد بحقائقها هذا الكتاب الكبير .

ولابن اياس في وصف الأيام العثمانية عبارات
ملؤها الوطنية الحزينة على ما صارت إليه مصر من
التغير ، بعد ذهاب الدولة المملوكية ومجيئ العثمانيين . على
أنه لم ير في ذلك التغير شيئاً إلا ما جرت به المقايير
التى ليس لإنسان عليها سلطان، ونسى ابن اياس أو تناسى
أن سلاطين المالك أنفسهم مسئولون إلى درجة كبيرة
عما آلت إليه مصر وأحوالها من ضعف أمام الخطر
العثمانى الداهم . وحز في نفس ابن اياس أن مصر صارت
بسبب ذلك ولاية تابعة لسلطان العثمانيين في استانبول،
وهى تبعية امتدت أربعة قرون تقريباً .

وتناول ابن اياس الحكم العثمانى في مصر بالنقد
والسخرية لاهمال رجاله مصالح المصريين أبناء البلاد ،
وملاً كتابه « بدائع الزهور في وقائع الدهور » بهذه
النغمة الجريئة ، ولم يشترك في احتفالات العثمانيين
وأعيادهم بالقاهرة ، وذلك برغم ما أحاطه السيادة

أما منبع اختيار هذه الصفحات، فهو احتوائها على تصوير استاتيكي شامل لجميع كبار الموظفين في السلطنة المملوكية الجديدة ، قبل أن يتحركوا في دوائر وظائفهم المختلفة ، وهو تصوير يقف بالقارئ ويستوقفه ليرى منه لنفسه أن مصر المملوكية لم تكن للمصريين من قريب أو بعيد ، بل كانت لفئات من المالك الأجانب المسيطرين بأسمائهم وأسماء زوجاتهم وورثانهم التركية وغير التركية على جميع شئون البلاد الإدارية ، والاقتصادية والاجتماعية .

ويتلو هذا التصوير جملة من أخبار السلطنة المملوكية صغيرها وكبيرها ، وبعضها سياسى وبعضها اقتصادى أو غيره ، حسبما اتفق من الترتيب الزمنى المطلق ، سنة بعد سنة ، وشهراً بعد شهر ، ويوماً بعد يوم ، وهو ما تجرى عليه كتب الحوليات التاريخية في جميع اللغات الشرقية والغربية في العصور الوسطى .

والمقتبس الثانى أخبار وصلت من مكة إلى القاهرة مع مبشر الحاج ، أواخر سنة ٩١٢ هـ (١٥٠٦ م) ، وهى تصف لأول مرة ، وفى قليل من التفصيل ، جميع أعمال البرتغاليين فى مياه المحيط الهندى والمداخل الجنوبية للبحر الأحمر ، منذ مجئ السفن البرتغالية من غرب أوربا إلى تلك الجهات ، عن طريق رأس الرجاء الصالح ، أى منذ عشرين سنين قبل وصول هذه الأخبار الخطيرة موجزة إلى القاهرة . ويبدو من هذه الأخبار التى أوردها ابن اياس عرضاً ضمن أخبار مكة والحمل المصرى السنوى ، أن المعلومات الجغرافية المملوكية بصدد البرتغاليين وأهدافهم واتجاهاتهم كانت حتى وقتذاك ضئيلة قليلة جاهلة ، وأن إفاقة السلطنة المملوكية للخطر البرتغالى على شرايينها التجارية الواصلة وقتذاك إلى الهند جاءت متأخرة ، وكان تأخيرها هذا سبباً من عديد الأسباب التى أنزلت بأسطول مملوكى كبير هزيمة بحرية مشهورة على أيدي البرتغاليين فى المياه الهندية ، شمالي بومباى الحالية ، كما أنزلت بجيوش مملوكية بقيادة

العمانية من رهبة وخشية . ومن يدري ؟ ربما كان موقفه هذا من الحكم العثمانى وجبروته هو السبب فى اخفاء ترجمة حياته من كتب التراجم . وعلى هذا يكون ابن اياس طليعة مبكرة من طلائع الوطنية فى الشرق العربى ، وتكون الصفحات الختامية من كتابه « بدائع الزهور فى وقائع الدهور » أول صيحة طيبة من صيحات الاحتجاج ضد مظالم الحكم العثمانى الشهيرة فى التاريخ .

وهنا يقف كاتب هذه السطور نهائياً عن الكتابة ، ليقرأ مع القارئ بضعة مقتبسات مختارة من الصفحات المعاصرة من كتاب بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، وكل مقتبس منها لحة قصيرة لفتح الشبهة الفكرية لقراءات طويلة مشبعة من هذه الصفحات ، لا على أنها تاريخ بالمعنى العلمى الحديث لهذا اللفظ ، بل على أنها مجموعة أخبار وحوادث متنوعة ، لتغذية المشتغلين بالتاريخ المصرى ، على اختلاف طاقاتهم واختصاصاتهم . والواقع أن هذه الصفحات المعاصرة وأشباهاها من محتويات الحوليات حقول دانية للمؤرخ السياسى والاقتصادى والاجتماعى ، وغيرهم من أصناف المؤرخين . لكن هذه الحقول متاهة المدعين المحشورين فى زمرة المؤرخين ، ويرحم الله أسلافنا ومعاصرنا الذين انتحلوا من هذه الصفحات ملازم متلاحقة أو مبهوثة متفرقة ، وخالوها تاريخاً علمياً مأخوذاً من المصادر الأصلية الكبرى ، كأحسن ما يكون التاريخ .

ومما ينبغى التنبيه إليه فى هذا الصدد ، أن المقتبسات المختارة هنا منقولة بنصها للقارئ ، من الطبعة الأخيرة من كتاب بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، مع تشريح الفقرات فى كل مقتبس منها بكثير من علامات الفصل والوصل والترقيم .

وأول هذه المقتبسات فاتحة أخبار سنة ٩٠٨ هـ (١٥٠٢ م) ، وهى السنة الثالثة من عهد السلطان قانصوه الغورى ، حين تم أمر هذا السلطان فى السلطنة ، وثبتت قواعد دولته ، فأخذ فى إعلان أسماء الموظفين لحكومته .

السلطان قانصوه الغورى نفسه هزيمة أكثر شهرة ، على أيدي العثمانيين ، وهى هزيمة مرج دابق شمالى حلب الشام .

والمقتبس الثالث بيان وصفى لهزيمة مرج دابق ، وهى الهزيمة التى ختمت بنجاح الانهيار على السلطنة المملوكية فى مصر ، وافتتحت بها السلطنة العثمانية سلسلة انتصاراتها الزاحفة عبر الشام إلى مدينة القاهرة ، حيث أعلن السلطان سليم العثمانى نهائياً أن مصر باتت ولاية تابعة للعثمانيين . وفى مطلع هذا البيان الوصفى تصوير للجيش المملوكى ، وعلى رأسه السلطان قانصوه الغورى يرتب الصفوف استعداداً للحرب والقتال ، وكأنه وحاشيته وقادته فى موكب العودة من انتصار مملوكى كبير ، أو من احتفال بمولد من موالد الأولياء الصالحين ، أو من يوم الخروج لصلاة أحد العيدين . غير أنه لم تكن بضع ساعات حتى صار ذلك الموكب الاستعراضى الحافل مركزاً دارت حوله معركة حامية دامية ، بدأت بمأساة سقوط السلطان قانصوه الغورى ميتاً بالفالج فى الميدان ، وانتهت بمأساة انهزام الجيش المملوكى ورجوعه القهقرى مفلولاً مكسوراً إلى حلب ودمشق ، ثم إلى القاهرة .

والمقتبس الرابع ترجمة طويلة للسلطان قانصوه الغورى ، بعد وفاته فى مرج دابق ، وهى ترجمة تحليلية ناقدة لأعمال هذا السلطان وصفاته الشخصية والسياسية . ويبدو واضحاً من نعمة هذا المقتبس أن ابن اياس لم يكن من المعجبين بالسلطان قانصوه الغورى ، وأن محاسن هذا السلطان لم تكن فى نظره شيئاً بالقياس إلى مساوئه . غير أن ابن اياس لم يكن منصفاً فى هذا التقدير ، لأنه أغفل فيه أن هذا السلطان الطاعن فى السن اعتلى دست السلطنة فى دولة نخرت فيها عوامل الاحتضار والزوال منذ سنين ، وربما كانت الرغبة فى مقاومة هذه العوامل هى التى أدت بهذا السلطان الطيب القلب إلى اتخاذ بعض ما اتخذ من إجراءات انقاذية مالية تعسفية كثيرة .

والمقتبس الخامس قائمة بأسماء بعض الأمراء المالك والقضاة وكبار الموظفين والمهندسين والتجار وأساتذة المهن والحرف والصناعات من المصريين وغير المصريين ، من قرر السلطان سليم الأول العثمانى اخراجهم من القاهرة ، ونفيهم إلى اسطنبول ، لأسباب متعددة ، وربما كانت الوطنية المصرية أحد هذه الأسباب . وتبلغ هذه المجموعة نحو مائة من الرجال ، ولكنها تبلغ أكثر من ذلك ، سواء من ناحية الكم العددى ، أو الكيف الفنى ، بدليل ما أورده ابن اياس فى كتابه ، قبل هذه القائمة وبعدها ، من أسماء خرج أصحابها مأمورين من القاهرة إلى اسطنبول ، فضلاً عن أن هذه الأسماء — ما تقدم منها وما تأخر — اشتملت فى الواقع على مجموعة المهارات الإدارية والصناعية التى اقتلعتها العثمانيون من مصر ، ليفيدوا منها فى بناء عمارتهم التى تزدهر بها اسطنبول الحالية ، ولم تكن هذه الخسارة أول الخسائر المصرية أو آخرها ، بسبب الاستيلاء العثمانى على مصر ، وهى تدل فيما تدل على أن مصر فقدت وقتذاك السيطرة على مستقبلها القريب والبعيد ، وذلك لمدة أربعة قرون مظلمة ، تناول منها كتاب بدائع الزهور فى وقائع الدهور ما لا يزيد عن خمس سنوات قصيرة ، أى حتى سنة ٩٢٨ هـ (١٥٢٢ م) وهى السنة التى توفى فيها محمد أحمد بن اياس .

المقتبس الأول

فاتحة أخبار السنة الثالثة من عهد السلطان قانصوه الغورى

ثم دخلت سنة ثمان وتسعائة فيها فى الحرم كان خليفة الوقت يومئذ الإمام المستمسك بالله أبو الصبر يعقوب بن المتوكل على الله عبد العزيز ، والسلطان يومئذ الملك الأشرف أبو النصر قانصوه الغورى .

وأما القضاة الأربعة فالقاضى برهان الدين إبراهيم ابن أبى شريف المقدسى الشافعى والقاضى سرى الدين

عبد البر بن الشحنة الحلبي الحنفى، والقاضى البرهان إبراهيم الدميرى الملكى والقاضى شهاب الدين أحمد بن الشيشينى الحنبلى .

فلما دخلت هذه السنة وتم أمر السلطان فى السلطنة وثبتت قواعد دولته قرر الأمراء المقدمين أربعة وعشرين أميراً مقدماً ألف منهم أرباب الوظائف وهم : الأتابكى قيت الرجى أمير كبير، وقرقاس من ولى الدين أمير سلاح واصطمر من ولى الدين أمير مجلس وقانى باى قرا من ولى الدين أمير آخور كبير، وطراباى الشريفى نوبة النوب، وأزدمر من على باى دوادار كبير وخاير بك من ملباى حاجب الحجاب وهو أخو قانصوه البرجى نائب الشام ، فهؤلاء أرباب الوظائف .

وأما الأمراء المقدمين الذين بغير وظائف وهم : خشكلدى البيسقى الظاهرى خشقدم وقانصوه بن سلطان جركس المعروف بابن اللوقا والأمير سودون العجمى وماماي الحمدي المعروف بجوشن وأنصبای من مصطفى وتمر الحسى وطقطباى العلاى نائب القلعة وطقطباى من ولى الدين وهو الوزير والاستاذار ودولات باى قرموط وقانصوه من طراباى المعروف بكرت وأرزمك الشريفى الناشف وأريك من طراباى المكحل ونوروز من أربك أخو يشبك الدوادار وأبو يزيد الحمدي وعلى باى السيفى يشبك الذى كان نائب غزه وخاير بك السيفى اينال من اينال كاشف الغربية وجانبلاط الحمدي أخو قانصوه البرجى . انتهى العدد من ذلك .

ثم قرر السلطان من الأمراء الطبلخانات خمسة وسبعين أميراً منهم أرباب الوظائف عشرة وهم : عبد اللطيف الزمام والخازندار الكبير والمقر الناصرى محمد ابن السلطان شاد الشراب خاناه وجانم قريب الأشرف قانصوه خمسمائة أمير دوادار ثانى ومغلباى الشريفى الزردكاش الكبير وتمراز جوشن رأس نوبه ثانى وكان بردى تاجر المالك وطومان باى قرا حاجب ثانى، وقلج من ولى الدين وأمير آخور ثانى ،

وتانى بك من يشبك محتسب القاهرة وخازندار ثانى ، وعلان والى القاهرة ويعرف بعلان من قراجا وقانصوه من دولات بردى استادار الصحبة ، فهؤلاء أرباب الوظائف .

وأما الأمراء الذين بغير وظائف فهم : قرقاس الشريفى ، وكان الأشرف جان بلاط أنعم على خشكلدى من ولى الدين بتقدمة ألف وعلى قرقاس الشريفى فلم يتم لها ذلك من بعده وآل أمرهما إلى امرة طلبخاناه ، وأزدمر من يشبك وخشكلدى من ولى الدين وقانصوه من بردبك وجانى بك من أزدمر وبرسباى العلاى وطوخ الحمدي الذى كان نائب القلعة وقانصوه الإبراهيمى وتانى بك المعروف بالأبج وتانى بك النجمى وقيت الأحول ويشبك من تبوك وبرقوق من خججا بردى وشاد بك الناصرى وجانبای الحمدي وجان بلاط من ولى الدين أيضاً وقرقاس من يشبك وتمر باى من سيباى وبكبلات من أقبای وقانى باى من يشبك وجانم الإبراهيمى وأربك الشريفى ومصر باى الشريفى وطومان باى من طوبزه ونوروز الشريفى وبلاط من حيدر ومامش الرجى وكرتباى من حيدر ومغلباى من تختجا وجان بلاط من قانصوه واصطمر من بشمان وقانى باى من أزدمر وسودون من مصطفى وألماس من يرد بك وقنبك من شاد بك وجانم من خضر وجان بردى من قائم وبرسباى الدمرداشى وتمر الإبراهيمى وجانى بك الشريفى وتم من شاد بك وماماي من قيت ، وقانصوه من يشبك وقان بردى من قانصوه وأرزمك من برد بك وتمر باى السيفى قجاس خازندار العادل طومان باى وجانم من قانصوه ومسايد من حيدر ويرش من عبد الكريم ومسايد أيضاً من قانصوه وجانى بك قرا الشريفى وطراباى الشريفى وقايتباى من جانى بك المعروف بالأشقر وشادى بك اليحياوى وقانصوه من يشبك وتانى بك السيفى أبردى ودولات باى من مصطفى وقانى من سودون الإبراهيمى وجانم من

قبحاس وطراباي من جانم ومغلباي من جانم ومصر باي
الأبوبكرى وجاني بك من حيدر، انتهى العدد من ذلك .
ثم قرر السلطان الأمراء العشرات مائة وخمسة
وثمانين أميراً وهم : عنبر مقدم المالك وخشكلى
الشريفى وتبك الناصرى وأسنباي من برسباى وقرأكر
الشريفى وجاني باي من يشبك وبكتمر من ولى الدين
وسنقر العلای وقلج السيفى قانصوه خمسمائة وجانم
السيفى قايتباى وأسنباي من قروس وطقطمش السيفى
أينال وسيباى الأبوبكرى وأينال من جانم وقانصوه
الإبراهيمى وسودون من حيدر ويوسف من مصطفى
وعلان من ولى الدين وأقردى الحسنى وقنبك الشريفى
وبهادر من قرقياس وأزدر من عبد الرحيم . . . الخ .
 واجتمع فى هذه السنة من الخاصكية ثمان مائة
خاصكى على ما قيل ، ثم تزايد عدد الخاصكية فيما بعد
حتى صاروا ألف ومائتى خاصكى .

أما النواب بالبلاد الشامية فكان ممن قرر بها من
أوائل هذه السنة وهم : قانصوه المحمدى المعروف
بالبرجى نائب الشام ، وسيباى المعروف بنائب سيس
قرر فى نيابة حلب ، وقرر جانم فى نيابة حماة ، وقرر
دولات باي قرابة العادل فى نيابة طرابلس، وكان قبل
ذلك نائب الشام ، وفر ثم عاد وقرر فى نيابة طرابلس،
وقرر سودون الدوادارى فى نيابة صفد ، وقرر فى
نيابة غزة قانصوه قرا ويعرف بقانصوه الجمل ، وكان
العادل قرره فى نيابة حلب وما تم ذلك وهو الآن مقدم
ألف بمصر ، وقرر ملاج فى نيابة القدس ، وقرر
أيدكى فى نيابة قطية ، ونائب الإسكندرية قانصوه
خمسائة السيفى يشبك الدوادار ، ونائب دمياط شخص
من الأتراك يسمى قارس المنصورى عثمان ، فهذا كان
حكم النواب بالبلاد الشامية فى أوائل هذه السنة ، ثم
تغيرت الأحوال من بعد ذلك وانتقلت النيابات إلى
آخرين من الأمراء يأتى الكلام عليهم .

وأما أرباب الوظائف من المتعممين وهم : القاضى
بدر الدين محمود بن أجا الحلبي الحنفى كاتب السر
الشريف بالديار المصرية ، والقاضى شهاب الدين أحمد
ابن الجمال يوسف ناظر الجيوش المنصورة ، والقاضى
صلاح الدين بن الجيعان مستوفى ديوان الجيش وناظر
الخزائن الشريفة ، والقاضى محيى الدين عبد القادر
القصرولى ناظر الجيش كان وهو الآن ناظر الكسوة
الشريفة وناظر الجوالى ، والشهابى أحمد بن الجيعان
نائب كاتب (١٣٣ آ) السر، وشمس الدين محمد بن مزاحم
ناظر الأسطبل الشريف ، ومجد الدين بن كراوية
ناظر الدولة والصحة الشريفة ، وكان على بن أبى الجود
متحدثاً فى جهات الخصاص يومئذ من حين توفى ناصر الدين
الصفدى ، ثم فى عقيب ذلك تولى نظارة الخصاص
علای الدين بن الإمام وهذه ثانى ولاية وقد راج أمره
فى هذه المرة إلى الغاية ، وكان يومئذ القاضى فخر الدين
ابن العفيف كاتب المالك السلطانية ، وموفق الدين بن
القمص الأسلمى ناظر الدخيرة والمتحدث على أوقاف
الزمامية ، وعبد الباسط بن تقى الدين ناظر الزردخناه ،
والشرفى يونس النابلسى ناظر الديوان المفرد ، ومحمد
ابن يوسف ناظر الأوقاف ، وصاحب ديوان الأحباس
شمس الدين بن العيسى ، وصاحب ديوان جيش الشام
بدر الدين ابن الأنباى وشريكه يوسف بن السيرجى .
وأما الوظائف التى غير هؤلاء فكان نقيب الجيش
يومئذ الشرفى يونس ابن الأقرع ، ومعلم المعلمين يومئذ
البدرى حسن بن الطولونى . انتهى ذلك .

فهذا كان ترتيب دولة الغورى فى أوائل سنة ثمان
وتسعمائة ، ثم انتقلت من بعد ذلك الأمريات والوظائف
إلى جماعة كثيرة من الأمراء والمباشرين يأتى الكلام
عليها فى موضعه من ولاية وعزل .

ومن الحوادث فى هذا الشهر أن مضى الخامس
عشر من الحرم ولم يعلم للحجاج خبر ولا حضر المبشر ،
فكثر القيل والقال بسبب ذلك ، فلما كان يوم الأحد

تاسع عشره حضر هيجان وأخبر أن أحوال الحج مضطربة إلى الغاية ، وأن الجازاني ابن أمير مكة قد أظهر العصيان وخرج عن الطاعة ، والتفت عليه يحيى ابن سبع أمير الينبع ومالك بن رومي أمير خليص وطائفة من عرب الحجاز يقال لهم بني إبراهيم ، قد خرجوا على ركب الحاج الشامي في رابع قبل أن يدخلوا إلى فنهوا الركب عن آخره وقتلوا الرجال وأسروا النساء وفعلوا لهم ما لا فعله تمرلنك لما دخل إلى الشام .

فلما جاءت هذه الأخبار إلى القاهرة اضطربت أحوال الناس لهذه الأخبار ثم انقطعت أخبار الحاج مدة طويلة لم يأت من عندهم خبر . (١٣٣ ب)

وفي يوم الخميس ثالث عشرينه الموافق لرابع مسرى زاد الله في النيل المبارك عشرين أصبعاً ، ثم أوفى في يوم الأحد ثامن مسرى وزاد عن الوفاء أحد عشر أصبعاً ، فكان فتح السد في يوم الاثنين تاسع مسرى الموافق لسابع عشرين المحرم وهو سابق النيل الماضي بيوم واحد والفضل بينهما سبعة عشر أصبعاً عن النيل الماضي . فلما أوفى توجه الأتابكي قيت الرجبي وفتح السد على العادة ، وكان يوماً مشهوداً .

وفي صفر في مستهله نزل الحاج إلى البركة على حين غفلة ، ثم في يوم السبت ثانية دخل المحمل إلى القاهرة وكان أمير ركب المحمل اصطمر من ولى الدين أمين مجلس ، وبالركب الأول الناصري محمد بن خاص بك ، ودخل الحاج وهو في غاية النكد بسبب ما جرى على الناس في طريق الحجاز .

وكان من ملخص واقعة الحجاج وهو ما استفاض بين الناس أن اصطمر أمير الحاج لما وصل إلى بطن مرو قبل أن يدخل إلى مكة لاقاه الجازاني من هناك ، فأحضر إليه اصطمر خلعة وقال له إن كنت تستقر أمير مكة أحمل للسلطان خمسين ألف دينار ، فقال الجازاني نعم أنا أحمل للسلطان هذا القدر ، فألبسه الخلعة حتى طمنه وقد أظهر العصيان من قبل ذلك وجرى منه أمور شتى

ثم إن اصطمر أرسل في الدس مكاتبة للشرىف بركات أخو الجازاني بأن يجمع العربان ويلاقيه حتى يقبض على الجازاني ، فلما أحس الجازاني بذلك تسحب تحت الليل من بطن مرو ، وكان اصطمر أرسل قليل الدربة ، فلما تسحب الجازاني لاقى الركب الشامي في رابع وجرى منهم ما تقدم ذكره من قتل ونهب وأسر النساء ، فلما دخل الحاج إلى مكة وبلغه ذلك اضطربت الأحوال إلى الغاية ووقف الحاج بالجبل وهم على وجل من الجازاني وعرب بني إبراهيم ، فلما انتهى الوقوف بالجبل وخرج الحاج من مكة قال اصطمر للشرىف (١٣٤ آ) بركات أخرج معنا ولاقي الجازاني ، فلما خرج الشرىف بركات صاحبه الحاج ووصل إلى مكان يسمى الدهنة فلاقاه أخوه الجازاني في جمع كثير من عرب بني إبراهيم ، فأرسل الجازاني يقول لاصطمر لا تدخل بيني وبين أخي ودعنا نقتتل في بعضنا وحد أنت الحاج وامضى ، فلم يسمع اصطمر منه ذلك ، ثم حضر يحيى بن سبع أمير الينبع وصار عوناً مع الجازاني ، فاتفقوا مع الشرىف بركات ، ودخل اصطمر بينهم ونادى في الركب بأن من كان معه سلاح يحضر عوناً على قتال الجازاني ، فاجتمع الجمل الغفير من الجمالة العكام والضوية فكان بينهم ساعة تشيب منها النواصي وآل الأمر إلى كسرة اصطمر أمير ركب المحمل ، وقتل ممن كان معه من المماليك السلطانية نحواً من مائة مملوك غير الغلمان والطقش ، وتمت الكسرة على من كان يركب المحمل في ذلك اليوم ونهب كل ما فيه حتى عروا النساء من أثوابهن وأخذوا عصائبهن من على رؤوسهن وقاسين من الشدة ما لا خير منه ، وتحلف غالب الحاج بالينبع وصاروا ينزلون في مراكب من البحر الملح ويدخلون إلى القاهرة بعد مدة طويلة وهم في أنحس حال ، وقاسوا في هذه السنة غاية المشقة وجرى عليهم كل سوء . وقيل إن الجازاني لم يفحش في حق من الركب الأول كما فعل بمن في ركب المحمل وقد راعى الناصري محمد بن خاص

المهمندار فشنع فيهما الأتابكي قيت الرجبي ، ثم بعد أيام أخلع السلطان على القاضي عبد البر وأعادته إلى القضاء على عادته ، وشفع في أزدمر المهمندار أيضاً — وأما الناصري محمد بن خاص بك فإنه أقام في التوكيل مدة أيام وقرر عليه السلطان عشرين ألف دينار ، واستمر على ذلك حتى ضمنه الأمير قرقاس أمير سلاح وتسلمه من السلطان وشفع فيه حتى حط عنه خمس آلاف دينار ، واستمر عند قرقاس في الرسم نحواً من ثلاثة أشهر حتى غلق ما قرر عليه من المال وأتى إلى بيته وحصل له غاية الضرر .

المقتبس الثاني

أخبار أعمال البرتغاليين

في المداخل الجنوبية للبحر الأحمر

وفيه حضر مبشر الحاج وأخبر بأن العسكر لما انتصر على يحيى بن سبع توجه إلى مكة ووقف بالجبل ، وأخبر بأن العيد كان هناك يوم الجمعة ، وأن مكة مغلية . وأخبر أيضاً أن الفرنج كثر تعبثهم ببحر الهند وأن حسين باش العسكر المتوجه إلى هناك يشرع في بناء أبراج على ساحل جدة وصور ، وقد جهزوا المراكب إلى الخروج إلى عدن فسر السلطان لهذا الخبر ، لكن تزايد الضرر من الفرنج فيما بعد وترادفت مراكب الفرنج ببحر الحجاز حتى بلغوا فوق عشرين مركباً ، وصاروا يعبثون على مراكب تجار الهند ويقطعون عليهم الطريق في الأماكن الخيفة ويأخذون مامعهم من البضائع حتى عز وجود الشاشات والأزر من مصر وغيرها من البلاد .

وسبب هذه الحادثة أن الفرنج تخيلوا حتى فتحوا السد الذي صنعه الإسكندر (١٦٧ آ) بن فليس الرومي وكان هذا نقباً في جبل بين بحر الصين وبحر الروم ، فلما زال الفرنج يعبثون في ذلك النقب مدة سنين حتى انفتحت وصارت تدخل منه المراكب إلى بحر الحجاز ،

بك دون اضطمر وكان متأثراً من اضطمر ، فلما جرى ذلك رجع الشريف بركات إلى مكة وهو مهزوم من أخيه البخازاني ، فلما رجع من بقي من الحجاج إلى الأزم وجدوا الآبار قد ردمت بالحجارة فمات من الحجاج جماعة كثيرة بالعطش ، فلما وصلوا بالحجاج إلى العقبة لاقاهم جماعة من عربان بني لام فعوقوهم عن طلوع العقبة وأفردوا عليهم ثلاثة آلاف دينار فجبي أمير الحاج ذلك من الحجاج ودفعها للعرب حتى مكنوهم من طلوع العقبة ، ودخلوا إلى بركة الحاج وهم في أسوأ حال ، فلما طلع الأمير اضطمر والناصري محمد بن خاص بك إلى القلعة ووقفوا بين يدي السلطان ونجهاهما بالكلام بسبب ما جرى على الحجاج من الجازاني وابن سبع ، ثم رسم بادخال اضطمر إلى قاعة البحرة ورسم أيضاً على الناصري محمد بن خاص بك ووكل به ، ثم أرسل القبض على قاضي القضاة الحنفى عبد البر بن الشحنة ووكل به وقد وثى به عند السلطان بأنه كاتب يحيى بن سبع وأيقظه بأن السلطان يقصد القبض عليه فأوسع خياله حتى عصاه على ما قيل ، وكذلك قبض السلطان على أزدمر المهمندار قيل أن يحيى ابن سبع كاتبه ولم يعلم السلطان بذلك ، فصار لكل واحد منهم ذنب واستمر الحال على ذلك .

وفي الثلاثاء خامس صفر توفي جان بلاط المحمدى أحمد مقدمي الألوف وهو أخو قانصوه البرجي نائب الشام . فلما مات دفن في تربة أخيه خاير بك التي أنشأها بباب الوزير ، وكانت مدته في التقدمة يسيرة ومات عقيب ذلك .

وفي تاسع صفر رسم السلطان باخراج اضطمر منفياً إلى ثغر دمياط ، فنزل من القلعة بعد العشاء وتوجهوا به إلى البحر وسار في مركب إلى دمياط وهو مقيد بقيد ثقيل .

وأما قاضي القضاة عبد البر بن الشحنة فرسم السلطان بنفيه إلى قوص ، وكان بيت نقيب الجيش هو وأزدمر

وكان هذا من أكبر أسباب الفساد .

وفي أواخر هذه السنة ظهر الطاعون ببلاد الصعيد ولم يقع بها في سنة عشر وتسعمائة لما ظهر بالقاهرة .

وفي هذه السنة طلع إلى السلطان شخص يسمى ابو الخير المرافع ، وقال له أنا ألزم لك بمائتين وخمسين ألف دينار أستخلصها لك ممن أعرفه ولا تنتطح في ذلك شاتان ، فقال السلطان إلى كلامه وقصد أن يخلع عليه وشرع في ذلك ، فاجتمع بعض الأمراء بالسلطان ورجعه عن ذلك فرجع ولله الحمد .

المقتبس الثالث

وصف هزيمة الجيوش المملوكية في

مرج دابق

وفي يوم السبت سادس عشر شعبان أشيعت هذه الكاينة العظيمة التي طمت وعمت وزلزلت لها الأقطار ، وما ذاك أن أخبار السلطان والعسكر انقطعت مدة طويلة ثم حضر كتاب على يد ساع مطرد من عند الأمير علان الدوادار الثاني أحد الأمراء المقدمين ، فذكر فيه أن السلطان كان يكذب في أمر سليم شاه بن عثمان ويصدق إلى أن حضر مغلباي دوادار سكين وهو في حال النحس بزمط أقرع على رأسه وهو لا يلبس كبر عتيق دنس ، وراكب على اكديش هزيل ، وقد نهب بركه وأخذت خيوله وقماشه ، وأخبر أن ابن عثمان أبي من الصلح وقال له : قل لأستاذك يلاقيني على مرج دابق ، وأخبر أنه وضعه في الحديد وقصد أن يخلق لحيته وقدمه إلى المشنقة عدة مرار حتى شفع فيه بعض وزرائه ، وحمله الزبل من تحت خيله في قفة على رأسه ، وقاسى منه من البهدة ما لا خير فيه ، فلما سمع السلطان ذلك تحقق وفوق الفتنة بينه وبين ابن عثمان ، فقبل إنه أنعم على مغلباي بألف دينار وخيول وقماش وبرك في نظير ما ذهب له .

والذي استفاض بين الناس من أخبار السلطان أنه

صلى الظهر وركب وخرج من ميدان حلب يوم الثلاثاء في العشرين من رجب ، وصحبته أمير المؤمنين المتوكل على الله والقضاة الأربعة ، وكان تقدمه نائب الشام ونائب حلب وجماعة من النواب ، فخرجوا بأطلاب حربية وطبول وزمور ونقود حتى رجت لهم حلب ، فلما خرج السلطان من حلب توجه إلى حيلان فبات (١٣٧ أ) بها . فلما أصبح يوم الأربعاء حلاى عشرين رجب رحل السلطان من حيلان وتوجه إلى مرج دابق ، فأقام به إلى يوم الأحد خامس عشرين رجب ، وهو يوم نحس مستمر ، فما يشعر إلا وقد دهشته عساكر سليم شاه ابن عثمان فصلى السلطان صلاة الصبح ثم ركب وتوجه إلى زغزغن وتل الفار ، وقيل هناك مشهد نبي الله داود عليه السلام ، فركب السلطان وهو بتخفيفه صغيرة وملوطة بيضاء وعلى كتفه طير ، وسار يرتب العساكر بنفسه . فكان أمير المؤمنين عن يمينته وهو بتخفيفه وملوطة ، وعلى كتفه طير مثل السلطان ، وعلى رأسه الصنجق الخليفة . وكان حول السلطان أربعون مصحفاً في أكياس حرير أصفر على رءوف جماعة أشراف ، وفيهم مصحف بخط الإمام عثمان ابن عفان رضى الله عنه . وكان حول السلطان جماعة من الفقراء وهم : خليفة سيدى أحمد البدوى ومعه أعلام حمر ، والسادة الأشراف القادرية ومعهم أعلام خضر ، وخليفة سيدى أحمد بن الرفاعى ومعه أعلام خليفى ، والشيخ عفيف الدين خادم السيدة نفيسة رضى الله عنها بأعلام سود . وكان الصبي قاسم بك بن أحمد بك بن عثمان المقدم ذكره واقفاً بإزاء الخليفة وعلى رأسه صنجق حرير أحمر . وكان الصنجق السلطاني واقفاً خلف ظهر السلطان بنحو عشرين ذراعاً ، وتحت مقدم الممالك سنبل العثماني والسادة القضاة والأمير تمر الزردكاش أحد المقدمين . وكان ميمنة العسكر سيباى نائب الشام ، وعلى الميسرة خاير بك نائب حلب .

فقبل أول من برز إلى القتال الأتابكى سودون

العجمي وملك الأمراء سييأى نائب الشام والماليك القرانصة دون الماليك الجلبان ، فقاتلوا قتالا شديداً هم وجماعة من النواب فهزموا عسكر ابن عثمان وكسروهم كسرة مهولة وأخذوا منهم سبعة صنماجق ، وأخذوا المكاحل التي على العجل ورماة البندق ، فهم ابن عثمان بالهروب أو يطلب الأمان ، وقد قتل من عسكره فوق العشرة آلاف إنسان ، وكان النصرة لعسكر مصر أولاً ، (٢٧ ب) ويا ليت لو تم ذلك .

ثم بلغ الماليك القرانصة أن السلطان قال للماليكه الجلبان : لا تقاتلوا شئ واخلوا الماليك القرانصة تقاتل وحدهم ، فلما بلغهم ذلك ثنوا عزمهم عن القتال ، فبينما هم على ذلك وإذا بالأتابكي سودون العجمي قد قتل في المعركة ، وقتل ملك الأمراء سييأى نائب الشام ، فانهزم من في الميمنة من العسكر . ثم إن خاير بك نائب حلب انهزم وهرب فكسر الميسرة ، وأسر الأمير قانصوه ابن سلطان جركس وقيل قتل ، ويقال إن خاير بك نائب حلب كان موالساً على السلطان في الباطن ، وهو مع ابن عثمان على السلطان ، وقد ظهر مصداق ذلك فيما بعد فكان أول من هرب هو قبل العسكر قاطبة .

وكان ذلك خذلاناً من الله تعالى لعسكر مصر حتى نفذ القضاء والقدر ، فصار السلطان واقفاً تحت الصنماجق في نفر قليل من الماليك ، فشرع يستغيث للعسكر : يا أغوات هذا وقت المروءة قاتلوا وعلى رضاكم . فلم يسمع له أحد قولاً وصاروا يتحسبون من حوله شيئاً بعد شئ ، فالتفت للفقراء والمشايع الذين حوله وقال لهم : ادعوا إلى الله تعالى بالنصر فهذا وقت دعاكم ، وصار ما يجد له من معين ولا ناصر ، فانطلق في قلبه جمرة نار لا تطفى ، وكان ذلك اليوم شديد الحر ، وانعقد بين العسكرين غبار حتى صار لا يرى بعضهم بعضاً ، وكان نهار غضب من الله تعالى قد انصب على عسكر مصر وعلت أيديهم عن القتال .

فلما اضطربت الأحوال ، وتزايدت الأهوال ،

فخاف الأمير تمر الزرد كاش على الصنماجق فأنزله وطواه وأخفاه ، ثم تقدم إلى السلطان وقال له : يا مولانا السلطان إن عسكر ابن عثمان قد أدركنا فانج بنفسك واهرب إلى حلب . فلما تحقق السلطان ذلك نزل عليه في الحال خلط فالج أبطل شقته وأرخص (٣٧ آ) حنكه ، فطلب ماء فأتوه بما في طاسة ذهب ، فشرب منه قليلاً وألقت فرسه على أنه يهرب ، ففشى خطوتين وانقلب من على الفرس إلى الأرض ، فأقام نحو درجة وخرجت روحه ومات من شدة قهره ، وقيل فقعت مرارته وطلع من حلقه دم أحمر . وقيل إنه لما رأى الكسرة عليه ابتلع فص ماس كان معه ، فلما نزل جوفه غاب على الوجود وسقط عن فرسه ومات من وقته ، على ما قيل من هذه الإشاعة .

فلما أشيع بموته زحف عسر ابن عثمان على من كان حول السلطان فقتلوا الأمير بيبرس أحد المقدمين قريب السلطان ، والأمير اقبای الطويل أمير آخور ثاني أحد المقدمين ، وقتلوا جماعة من الخاصكية ومن غلمان السلطان ممن كان حوله .

وأما السلطان فمن حين مات لم يعلم له خبر ، ولا وقف له أحد على أثر ، ولا ظهرت جثته بين القتلاء ، فكان الأرض قد انشقت وابتلعتة في الحال . وفي ذلك عبرة لمن اعتبر ، فداساوا العثمانية المصاحف التي كانت حول السلطان بأرجل الخيول ، وفقد المصحف العثماني وأعلام الفقراء وصنماجق الأمراء ، ووقع النهب في عسكر مصر ، وزال ملك الأشرف الغوري على ملح البصر فكانه لم يكن .

فسبحان من لا يزول ملكه ولا يتغير ، بعد ما تصرف في ملك مصر وأعمالها والبلاد الشامية والحلبية وأعمالها ، فكانت مدة سلطنته خمس عشرة سنة وتسعة أشهر وخمسة وعشرين يوماً ، فإنه ولي ملك مصر في مستهل شوال سنة ست وتسعمائة ، وتوفي في الخامس والعشرين من رجب سنة اثنتين وعشرين وتسعمائة ،

فكانت الناس معه في هذه المدة في غاية الضنك :

وقد أقامت هذه الواقعة من طلوع الشمس إلى بعد الظهر ، وانتهى الحال على أمر قدره الله تعالى ، فقتل في تلك الساعة من عسكر ابن عثمان ومن عسكر مصر ما لا يحصى عدده ، فقتل من الأمراء المقدمين ثلاثة وهم : الأتابكي سودون العجمي وبيبرس قريب السلطان وأقبای الطويل ، وأسر قانصوه بن سلطان جركس وقتل سيباى نائب الشام وتمراز نائب (٣٨ ب) طرابلس وطراباى نائب صفد وأصلان نائب حمص ، وغير ذلك جماعة كثيرة من أمراء دمشق وأمراء حلب وطرابلس ، وقتل من أمراء مصر جماعة كثيرة من أمراء طلبخانات وعشرات وخاصكية وأكثر من قتل من عسكر مصر المماليك القرائضة ، ولم يقتل من المماليك الجلبان إلا القليل ، فإنهم لم يقاتلوا في هذه الواقعة شيئاً ، ولا ظهر لهم فروسية فكأنهم خشب مسندة ، وقتل من عسكر ابن عثمان ما لا يحصى ضبطه . وقتل من أمراء مصر ومن دمشق وحلب فوق الأربعين أميراً . وقتل في ذلك اليوم القاضي ناظر الجيش عبد القادر القصري وجماعة كثيرة من الجند يأتى الكلام على ذلك في موضعه فكانت ساعة يشيب منها الوليد ، ويدوب لسلطوتها الحديد ، فصار في مرج دابق جثث مرمية وأبدان بلا رعوس ووجوه معفرة في التراب قد تغيرت محاسنها ، وصار في ذلك المكان خيول مرمية موتى بسروج مغرق وسيوف مسقطة بذهب وبركستوانات فولاذ وخوذ وزرديات وبقيج قماش فلم يلتفت إليها أحد ، وكل من العسكرين اشتغل بما هو أهم من ذلك .

المقتبس الرابع

السلطان قانصوه الغوري

في تقدير المؤرخ محمد أحمد بن أياس

ومن هنا نرجع إلى أخبار الأشرف الغوري فإنه خرج من القاهرة يوم السبت الخامس عشر ربيع الآخر

من هذه السنة ، واستمر نافذ الكلمة وافر الحرمة إلى أن دخل حلب وأقام بها ، وأرسل إليه ابن عثمان عدة قصاد وهو تارة يظهر الصلح وتارة يأبى ، والسلطان مسلوب الاختيار معه في جميع ما يرسل يقوله له ، ويخلع على قصاده الخلع السنية وينعم عليهم بالعطايا الجزيلة ، إلى أن حضر مغلباى دواidar سكين الذى كان أرسله إلى ابن عثمان ، فلما رجع من عنده وهو في غاية البهدة كما تقدم ، وكان السلطان أرسل مغلباى هذا إلى ابن عثمان وهو لابس آلة الحرب باللبس الكامل ، فشق ذلك على ابن عثمان وبهده ، فلما حضر إلى عند السلطان وأعلمه أن ابن عثمان قد أتى من الصلح ، فلما تحقق السلطان أن ابن عثمان قد أوصل إليه ، فنادى للعسكر بالرحيل والخروج من حلب ، فخرج العسكر قاطبة وهم كالنجوم الزاهرة من آلة السلاح والخيول الغائرة وكل فارس مقوم بألف راجل من عسكر ابن عثمان ، فتوجهوا إلى مرج دابق ونزلوا به : فأقام السلطان بمرج دابق إلى يوم الأحد خامس عشرين رجب من هذه السنة :

فلما بلغه أن عسكر ابن عثمان قد وصل إلى تل الفار ركب صبيحة يوم الأحد المذكور وهو يوم نحس مستمر ، فبرز فيه إلى قتال ابن عثمان فكانت الكسرة أولاً على عسكر ابن عثمان ، ثم بدل الله تعالى هذا الأمر وعادت الكسرة على عسكر مصر .

فلما رأى السلطان عين الغلب من عسكره أراد أن يرجع إلى حلب ، فلما ألقت فرسه (٤٦ ب) لمهرب وينجو بنفسه ، فاعتراه سارقة من الرجفة فأغشى عليه ، فسقط من على ظهر فرسه إلى الأرض ، فطلعت روحه في تلك الساعة وهو ملقى على الأرض ، فرجعت عليه عساكر ابن عثمان ففر من كان حوله من الغلمان والسلحدارية والمماليك وتركوا جثته على الأرض ، فكان آخر العهد به ولم يرد له جثة ولا رأس ولا يعرف

له مكان فكأنما ابتلعت الأرض ولم يقف له أحد من الناس على خبر .

ومن العجائب أنه لم يدفن في مدرسته التي صرف عليها نحو مائة ألف دينار ، فصار مرمياً في البراري وقد تناهشته الذئاب والفئرة ، فمات وله من العمر نحو ثمانين وسبعين سنة . ومن العجائب والغرائب ، أن الطواشي تختص ، الذي كان بنى أساس مدرسة الغوري أولاً وأخذها منه غضباً في المصادرة ، سأل الغوري أن يجعل له في المدرسة مكاناً يدفن فيه إذا مات فمنعه الغوري من ذلك ، فمنع الله تعالى الغوري من الدفن في مدرسته ، وصار لا يعرف له مكان قبر فعند ذلك من العبر ، انتهى .

وكانت مدة سلطنته بالديار المصرية والبلاد الشامية خمس عشرة سنة وتسعة أشهر وخمسة وعشرين يوماً ، فكانت هذه المدة على الناس كل يوم منها كألف سنة مما تعدون .

وكانت صفته طويل القامة غليظ الجسد ذو كرش كبير ، أبيض اللون ، مدور الوجه ، مشحم العينين ، جهورى الصوت مستدير اللحية ، ولم يظهر بلحيته الشيب إلا قليلاً .

وكان ملكاً مهيباً جليلاً مبعجلاً في المواكب ملئ العيون في المنظر ، ولولا ظلمه وكثرة مصادراته للرعية وحبه لجمع الأموال لكان خيار ملوك الجراكسة بل وخيار ملوك مصر قاطبة .

وكان يوكب يوم الاثنين والخميس بالحوش السلطاني ، ويوم السبت والثلاثاء بالميدان ، فينزل من السبع حضرات وقدامه طوالتين خيل بسروج ذهب وكتابيش ومياتر زركش .

وكان يكثر في الأسفار من ركوب الحجورة بالسروج البداوى والركب العراض .

وكان يشد في وسطه حياصة ذهب عوضاً عن الشد البعلبكي . وكان يلبس في أصابعه الخواتم الياقوت

الأحمر والفيروز والزمرد والماس وعين الهر . وكان مولعاً بشم الرائحة الطيبة من المسك والعود والبخور . وكان ترفاً في مأكله ومشربه وملبسه ، ويحب رؤية الأزهار والفواكه ، ويميل إلى أبناء العجم ، وربما كان ميل إلى مذهب النسيمية من ميله إلى معاشره الأعاجم . وكان مولعاً بغرس الأشجار ، وحب الرياضات ، وسماع الأطيار المغردة ، ونشق الأزهار المعطرة والبخور . وكان يستعمل الطاسات الذهب يشرب فيها الماء . وكان يستعمل الأشياء المفرحة ، وكان نهماً في الأكل ، وكان يغوى طيور المسموع . وكان يعرف بقانصوه من بيردى الغوري .

واستمر يرتع في ملك مصر على ما ذكرناه من التمتع والرفاهية ، وهو نافذ الكلمة وافر الحرمة والأمراء والنواب والعسكر في قبضة يده لم يختلف عليه اثنان ، إلى أن وقعت الوحشة بينه وبين سليم شاه بن عثمان ملك الروم فخرج إليه ، وجرى له هذه الكاينة العظمى التي لم تقع قط للملك من ملوك مصر ولا غيرها من الملوك ، وكان ذلك في الكتاب مسطوراً .

وكان للغوري محاسن ومساوى لكن مساوئه أكثر من محاسنه ، فأما ما عد من محاسنه فإنه كان رضى الخلق بملك نفسه عند الغضب وليس له بادرة بحدّة عند قوة خلقه ، ومنها أنه كان له الاعتقاد الزائد في الصالحين والفقراء ، منها أنه كان يعرف مقادير الناس على قدر طبقاتهم ، ومنها أنه كان ماسك اللسان عن السب للناس في شدة غضبه ، ومنها أنه كان يفهم الشعر ويحب سماع الآلات والغناء وله نظم على اللغة التركية ، وكان مغرمًا بقراءة التواريخ والسير ودواوين الأشعار ، وكان قريباً من الناس يحب المزح والضحك في مجلسه غير كثيف الطبع في ذاته ، وكان عنده لين جانب ورياضة بخلاف طبع الأتراك ولم يكن عنده تشم ولا تكبر نفس ولا رقاعة زائدة بخلاف عادة الملوك في أفعالهم .

وأما ما عد من مساوئه فلإنها كثيرة لا تحصى ،

منها أنه أحدث (٤٧ ب) في أيام دولته من المظالم ما لا حدثت في سائر الدول من قبله ، ومنها أن معاملته في الذهب والفضة والفلوس الجدد أنحس المعاملات ، جميعها زغل ونحاس وغش لا يحل صرفها ولا يجوز في ملة من الملل ، ومنها ما قرره على الحسبة في كل شهر وهو مبلغ ألفين وسبعائة دينار فكانت السوق تباع البضائع بما تختاره من الأثمان ولا يقدر أحد يكلمهم فيقولون : علينا مال السلطان ، فكانت سائر البضائع في أيامه غالية بسبب ذلك ، وقرر على دار الضرب ما لا له صورة في كل شهر فكانوا يصنعون في الذهب والفضة النحاس والرصاص جهاراً ، فكان الأشرفي الذهب إذا صفوه يظهر فيه ذهب يساوي اثنا عشر نصفاً ، وقد سلم السلطان دار الضرب إلى شخص يسمى جمال الدين فلعب في أموال المسلمين وأتلف المعاملة وسبك ذهب السلاطين المتقدمة حتى صار لا يلوح لأحد من الناس منهم لا دينار ولا درهم ، فلما شق جمال الدين قرر في دار الضرب المعلم يعقوب اليهودي فشى على طريقة جمال الدين ، وقد استباع أموال المسلمين فكان النصف الفضة ينكشف في ليلته ويصير من جملة الفلوس الحمر ، فاستمر الغش في معاملته في مدة دولته إلى أن مات ، وقد ورد في الحديث الشريف من غشنا فليس منا .

ومن مساوئه أنه كان يحسن الرئيس كمال الدين ابن شمس المزين بالمقشرة ، وأقام بها أياماً ، وكان من المقربين عنده .

ومن مساوئه أنه كان يضع يده على أموال التركات الأهلية ويأخذ مال الأيتام ظلماً ، ولو كان للميت أولاد ذكور وإناث فيمنعهم من ميراثهم ، ويخالف أمر الشرع الشريف .

ومنها أنه كان يولى الكشاف ومشايخ العربان على البلاد ، يقرر عليهم الأموال الجزيلة ، فتفرده الكشاف ومشايخ العربان على بلاد المقطعين والأوقاف ، فيأخذ

كل منهم المثل أمثال ، فضعف أمر الجند من يومئذ وتلاشى حال البلاد .

وكذلك كان يولى النواب على أعمال جهات البلاد الشامية والخلبية ، ويقرر عليهم الأموال الجزيلة في كل سنة بقدر معلوم ، فيأخذونه من الرعية بالظلم والعسف ، فكان كل أحد منهم يتمنى الرحيل من بلاده إلى غيرها من عظم الظلم الذي يصيبهم من النواب ، ولا سيما ما حصل (٤٨ آ) لعربان جبل نابلس بسبب المال الذي أفرد عليهم لأجل المشاة عند خروج التجريدة ، فما حصل على أهل البلاد الشامية بسبب ذلك خير .

وكان حسين نائب جدة يأخذ العشر من تجار الهند المثل عشرة أمثال ، فامتنعت التجار من دخول بندر جده وآل أمره إلى الخراب ، وعز وجود الشاشات من مصر والأزر والأنطاع ، وأخرب البندر .

وكذلك بندر الإسكندرية وبندر دمياط ، فامتنعت تجار الفرنج من الدخول إلى تلك البنادر من كثرة الظلم وعز وجود الأصناف التي كانت تجلب من بلاد الفرنج وكان كل أحد من الأراذل يتقرب إلى خاطر السلطان بنوع من أنواع المظالم ، فقرر على بيع الغلال قدراً معلوماً يؤخذ على كل أردب ، وهي ثلاثة أنصاف من البائع والمشتري ، وكذلك على البطيخ والرمان ، حتى خرج على بيع الملح . وجدد في أيامه عدة مكوس من هذا النمط ما لا فعله هناد في زمانه .

ولم يفته من أعيان التجار أحد حتى صادره وأخذ أمواله ، ولا سيما ما جرى على الشيرازي والخلبي التاجر وغيره من التجار . وصادر حتى أمير المؤمنين المستمسك بالله يعقوب وأخذ منه مالا له صورة ، ودخل في جملة ديون حتى أورد ما قرر عليه .

وأما من مات تحت عقوبته بسبب المال ، منهم القاضي بدر الدين بن مرهز كاتب السر كان ، ومنهم شمس الدين بن عوض ، ومعين الدين بن شمس ، وعلم الدين كاتب الخزانة ، وغير ذلك جماعة كثيرة من

المباشرين والعمال ، ماتوا في سجنه بسبب المال والمصادرات
ومن أفعاله الشنيعة ما فعله مع أولاد الناس من
خروج أقطيعهم ورزقهم من غير سبب ، وأعطى
ذلك إلى مملكته الجلبان .

ومنها قطع جوامك الأيتام من الرجال والنساء
والصغار ، فحصل لهم الضرر الشامل بسبب ذلك .

ومنها أنه أرسل فك رخام قاعة ناظر الخصاص
يوسف التي تسمى نصف الدنيا ، فوضع ذلك الرخام
في قاعة البيسرية التي بالقلعة .

ومنها أنه قطع الممتدات التي كانت تسامح بها الناس
من الديوان المفرد من تقادم السنن ، وجدد
أخذ الحمايات من المقطعين من قبل أن يزيد النيل
وتزرع الأراضي ، فكانت المقطعون تقاسى من
البهدة ما لا خير فيه .

ثم تزايد شحه حتى صار يحاسب السواقين الذين في
سواقى القلعة ، والخولة الذين في سواقى الميدان ، بحجة
روث الأبقار وما يتحصل من ذلك كل يوم ، وقرر
عليهم بيعها بمبلغ يردونه للذخيرة .

وكانت أرباب الوظائف من المباشرين والعمال معه
في غاية الضنك لا يغفل عنهم من المصادرات ساعة
واحدة ، وصادر حتى المغاني النساء من الرؤساء .

وكان من حين توفي الأمير خاير بك الخازندار
يباشر أمر ضباط الخزانة بنفسه ، ما يدخل إليها وما
يخرج منها ، ويعرضون عليه الأمور في ذلك جميعه
من الوصولات بما يصرف من الخزائن في كل يوم ،
فكانت هذه الأموال العظيمة التي تدخل إليه يصرفها
في عمائر ليس بها نفع للمسلمين ، ويزخرف الحيطان
بالذهب والسقوف ، وهذا عين الإسراف لبيت مال
المسلمين .

وكان يهرب من المحاكمات كما يهرب الصغير من
الكتاب ، وما كانت له محاكمة تخرج على وجه مرض

بل على أمور مستفجة . وكان يتغافل عن أمور القتلاء
ويدفع الأخصام إلى الشرع ويضيع حقوق الناس عليهم .
وكان يكسل عن علامة المراسيم فلا يعلم على
المراسيم إلا قليلا ، فيوقف أشغال الناس بسبب ذلك
كله ، حتى كانت تشتري العلامة العتيقة بأشرفى حتى
تلتصق على المرسوم لأجل قضاء الخوايج . ولو شرحنا
مساوئه كلها لطال الشرح في ذلك . انتهى .

المقتبس الخامس

أسماء المنقولين من القاهرة إلى أسطنبول
بأمر السلطان سليم الأول العثماني

ومن أعظم مساوئ سليم شاه ابن عثمان خروج أعيان
رؤساء الديار المصرية ونفيهم إلى أسطنبول ، ونحن
نذكر منهم ما تيسر ذكره .

ذكر من توجه في هذه السنة إلى القسطنطينية

من أعيان رؤساء الديار المصرية وهم : مولانا أمير
المؤمنين المتوكل على الله محمد بن المستمسك بالله
يعقوب ، وأولاد ابن عمه سيدى خليل وهما أبو بكر
وأحمد ، والمقر العلاء على بن الملك المؤيد (١١٨ ب)
أحمد بن الأشرف إينال .

ومن أولاد الأمراء : الجنساب الشرفى يونس
ابن الآتابكى سودون العجمى ، والجناب الناصرى محمد
ابن العلاء على بن خاص بك صهر الأشرف قايتباى ،
ومن الأمراء : بيردى من كسباى الذى كان
باش المخاورين أحد الأمراء العشرات ، وقرأكز
الجمكى أحد العشرات محتسب مكة ، وقانصوه القيم
باش المدينة الشريفة ، وجماعة من الممالك السلطانية الذين
كانوا مجاورين بمكة ، وجانى بك دودار الأمير
طراباى .

ومن أولاد الناس : الشهابى أحمد بن البدرى حسن
ابن الطولونى معلم المعلمين ، ويوسف بن أبى الفرج

الذى كان نقيب الجيش ، ويحيى بن نوكار الذى كان دوا دار الوالى .

ومن نواب السادة الشافعية : الشيخ زين العابدين ابن قاضى القضاة كمال الدين الطويل ، والشيخ شرف الدين بن روق ، والشيخ شمس الدين الحلبي ، والشيخ شمس الدين بن وحيش ، والشيخ كمال الدين بن مظفر والشيخ بدر الدين البلقيني ، والشيخ برهان الدين الأنباسي ، والشيخ شمس الدين الحجازي ، والشيخ شمس الدين ابن الآدمي الدمياطي ، والقاضى شمس الدين المقسمي العزيزي ، والسيد الشريف الحجار ، والقاضى ولى الدين البتوني بن الشارمساحي ، والقاضى شمس الدين بن جمال الدين الأتميدى .

ومن نواب السادة الحنفية : الشيخ زين الدين الشرناقشي ، والسيد الشريف البرديني ، والشيخ بدر الدين بن الوقاد السعودي ، والشيخ بدر الدين محمد ابن الرومي .

ومن نواب السادة المالكية : الشيخ شهاب الدين أحمد الفيشي ، والشيخ شهاب الدين الأبادي .

ومن نواب السادة الحنابلة : الشيخ شهاب الدين الهيتمي ، الشيخ جلال الدين الطنبدي ، والقاضى جمال الدين الحنبلي .

وأما من توجه إلى أسطنبول من السادة المباشرين السلطانية ، وهم : المقر الشهابي أحمد ناظر الجيش ابن ناظر الخصاص يوسف ، وابن أخيه بدر الدين ابن كمال الدين ، والجناب الشمس محمد بن القاضى صلاح الدين بن الجيعان ، والقاضى عبد الكريم أخو الشهابي أحمد بن الجيعان كتاب الخزائن الشريفة ، والقاضى زين الدين عبد القادر ابن الملكى مستوفى ديوان الجيوش المنصورة ، والشمسى محمد بن البارزى والقاضى أبو البقا بن السيرجى من ديوان جيش الشام . ومن كتاب الماليك : شمس الدين محمد بن فخر الدين كتاب الماليك ، وسعد الدين ، وفرج ، وكريم

الدين ، وفتح الدين ، من أولاد بن فخيرة وابن أبى المنصور ، ومحمد بن عبد العظيم ، ويحيى الدين ابن بهاء الدين ، وشمس الدين محمد بن إبراهيم الشراييشي ناظر أوقاف الزمامية ، وشمس الدين محمد من أولاد ابن البقرى ، وأولاده ، وأبو الحسن بن الرقيق ، وعبد العظيم بن أبى غالب ، ويحيى بن الطنساوى ، وشهاب الدين ابن عبد العظيم ، وعبد الباسط بن تقى الدين ناظر الزردخاناه ، وولده زين ، وتاج الدين ، وعلى المرجوشي ، وأخويونس الاستادار ، وابن الزكى ، ومحمد بن على كاتب الخزانة ، وأبو السعادات وأفضل الدين المنوفى ، وناصر الدين الغزى الموقع ، وأحمد بن قريميط ، وعبد القادر بن قريميط ، وولى الدين ناظر المواريث وعامل المواريث ، وسعد الدين أخو علاى الدين ناظر الخصاص ، وبركات المنوفى ، وسعد الدين المنوفى أيضاً ، ومحمد بن الكويز ، وأحمد ابن حشو الطن ، وابن نصرالله ، وكريم الدين صهر عبد الفتاح ، ومحمد بن أبى غالب ، وصفى الدين ، وابن الهيصم ، وتاج الدين بن البقرى ، وشقيقه ، وبركات بن شلما ، وكمال الدين الناصرى ، وحامل المزرة زين ، وعبد الرحمن مباشر أمير آخور كبير ، وبدر الدين بن خازوقة ورفيقه ، وأبو الفضل مباشر الوالى ورفيقه ، والعبادى ورفيقه ، وبدر الدين مباشر الأمير أنصباى ، وكمال الدين العليق مباشر أمير آخور كبير ، وآخرون من المباشرين ما يحضرنى أسأؤهم الآن . ومن أعيان الناس : المهتار محمد النجولى مهتار السلطان الغورى ، والمهتار سليمان ، ومحمد بن يوسف الدين كان ناظر الأوقاف ، وعلم الدين جلبي السلطان الغورى ، وعلى مقدم الدولة .

ومن الزردكاشية : يحيى بن يونس ، ومحمد العادلى الشهير بابن البدوية ، وزين العابدين بن محمود الأعور ، وجماعة من السينوفية والصياقلة والسباكين والحدادين .

ومن تجار الباسطية : شهاب الدين الخطيب الأسمر
وأحمد الديروطي وأولاد ابن نفيس .

ومن تجار الوراقين : ناصر الدين الماوردي ،
ومحمد المسكي الأسود ، وعلى بن خشم .
ومن تجار سوق مرجوش : ابن الشقيرة ،
وأبو الفوز ابن الحمصاني ، وبدر الدين الغزولي شيخ
سوق الغزل (١١٩ ب) .

ومن تجار المغاربة : الشيخ سالم ، وسعيد التاجوري
وسعيد اللبدى ، وأبو سعيدة ، وآخرون لم يحضرني
أسماؤهم من التجار بأسواق القاهرة وغيرها من التجار
الذين توجهوا إلى أسطنبول .

ومن الخدام : مقدم الماليك سبيل العثماني ، ونائبه
جوهر الرومي ، وقيل إن جوهر توجه إلى القدس
بطلا ، وآخرون من الخدام والسقا .

ومن البردارية : كمال الدين برددار أمير كبير ،
وعبد القادر ، وابن المنقار ، وشهاب الدين أحمد
الجارحي قيل مات من الرجفة قبل سفره بأيام ، وابن
الشيخ ، ومحمد بن رسلان ، وناصر الدين وإسماعيل ،
ومحمد الكاتب ، وأبو بكر ، وابن السميني ويحيى بن
يحيى ، وبركات ابن المبيض ، ومحمد بن الجبان ،
وبركات النائب ، وسعد الدين البحلاق ، ويحيى مقدم
الخاص ، وحسن نائب البرماوي والسوهاجي ، ومحمد
قطارة ، ومحمد بن فرو شيخ جهات المصرية ، وآخرون
ما يحضرني أسماؤهم الآن .

ومن رعوس النواب : فرج ابن البريدى رأس
نوبة حجاب وآخرون من رعوس النواب ، ومقدمين
السقاين : عبيد ، وأبو الخير ، وابن فريخ الفار .

وتوجه إلى أسطنبول جماعة من البنائين والنجارين
والحدادين والرخين والمبلطين والخراطين والمهندسين
والحجارين والفعلة جماعة كثيرة ما يحضرني أسماؤهم
الآن . وزعموا أن الخندكار ابن عثمان يقصد أن ينشئ

له مدرسة في أسطنبول مثل مدرسة السلطان الغوري
التي في الشراشيين .

وتوجه إلى أسطنبول جماعة من طائفة اليهود
والسمرة ، ومن طائفة النصاري : بانوب الكاتب في
الخزائن الشريفة وأبو سعيد ، وأمين الدولة ، ويوحنا
الصغير ، ويوسف بن هبول ، وشيخ المكين السكندري
وولده ، وآخرون من النصاري واليهود ما يحضرني
أسماؤهم .

فيقال إن مجمع من خرج من أهل مصر وتوجه إلى
أسطنبول دون آلاف إنسان ، والله أعلم بحقيقة ذلك ،
وفيهم نسوان أيضاً وأولادهم صغر رضع ، وشيء كبار .
ولم تقاس أهل مصر شدة من قديم الزمان أعظم من
هذه الشدة ، ولا سمعت بمثلها في التواريخ القديمة ،
وكان ذلك في الكتاب مسطوراً ، ففارقت الناس أوطانها
وأولادها وأهاليها وتغربوا من بلدهم إلى بلد لم يطؤوها
قط ، وخالطوا أقواماً غير جنسهم ، فلا حول ولا قوة
إلا بالله العلي العظيم .

وكانت سنة مشومة على أناس ، ومباركة على أناس
وسعدت فيها أناس ، وتعتست فيها أناس . وكانت سنة
مباركة على المباشرين الذين بمصر ، وصاروا هم الملوك
يتصرفون في المملكة بما يختارونه من الأمور ، ولا سيما
ما فعلوه في جهات الشرقية والغربية وجهات الصعيد ،
ووضعوا أيديهم على رزق الناس والاقطاعات ، ثم
استدرجوا إلى أخذ أموال الأوقاف ، وصار ليس على
يدهم يد يفعلون ما يشاءون من هذا النمط ، فغندوا في
هذه السنة أموالاً جزيلة من البلاد مما أخذوه من خراج
الناس ، فكان مجيء ابن عثمان إلى مصر رحمة في حق
المباشرين وغيرها من الناس ممن أودعوا عندهم الأمراء
والعسكر الأموال والقماش وقتلوا في الوقعة ، ففعلوا
على تلك الودائع ، وراحت على من راح ، فكان كما
يقال في المعنى : مصائب قوم عند قوم فوائد ، انتهى
ذلك .